دراسات فى الفن

متابعة العلم ليست فناً

على ذكر الفن الرمزى الحديث

الأستاذ عزيز أحمد فهمى

كنا نعرف الفن الرمزى فيما مضى على نوعين : إما أن يكون تجسيداً للمعانى يتدلى به الفنان إلى جمهور الأذهان ، وإما أن يكون على العكس من ذلك تلويحاً بالبعيد دون القريب يتعالى به الفنان على جمهور الأذهان . ولم يكن هذا لينتزع من الفن الرمزى طبع الفن ولا خواصه ، فقد احتفظ بكيانه كاملاً ، فهو سابق وهو حر ، وهو صادق وهو شاعر

واليوم يراد بنا أن نعرف نوعاً ثالثاً من الفن الرمزى هو — فيما يقول أهله — تابع يمشى وراء العلم ، علم النفس ، يشرح نظرياته وقواعده وما يثبت عنده من طباع النفس وأحوال حياتها . فهل يجوز لنا أن نقبل هذا النوع الثالث على أنه فن صحيح ؟

إننا إذا فعلنا ذلك جرّأنا كثيراً جداً من الأعمال العقلية على المطالبة بالارتفاع إلى مستوى الفن ، وقد يجرنا هذا إلى نوع من البلشفية الروحية التى تسوى ما بين الحق والزيف ؛ فتصبح ألفية ابن مالك فناً شعريا لأنها نظم يشرح النحو ، كما أصبح الخشب فى هذه الأيام حريراً ، وكما خرج السمن فى هذه الأيام من زيت جوز الهند .

وكى ندفع عن رأينا هذا ، فإنه يلزمنا أن نتعرف فى الفن بعض النواحى التى لو فقدها لفقد طبيعته ، فأصبح شيئاً آخر قد يكون حلواً لذيذاً ، ولكنه لن يكون بحال من الأحوال فناً صحيحاً .

فما هى هذه النواحى التى يتحتم على الفن أن يستوفيها كى يكون فناً صحيحاً ؟

أولها من غير شك هذا الحس الصادق الذى تبعثه الحياة نفسها . وهذا الحس هو الذى يملأ نفس الفنان حتى يفعمها ، ثم يفيض منها فناً يتلقاه الناس فيشعرون أنه نبع من نفس صاحبه رغم أنفه ، لأنه لم يكن يملك من يكتمه بعد أن ازدحم فى نفسه وكثف . والفنان الحق لا يبحث عن الأحاسيس ولا يتكلفها ، وإنما هو منطلق فى الحياة كما ينطلق بقية الناس ، أو كما تنطلق بقية المخلوقات لا يعترم أن ينتج فناً ، ولا يتهيأ لذلك ، ولا يتعلم من الناس طريقة التعبير عن نفسه .

ومع هذا الحس الصادق سَبْقٌ يطير بالفنان إلى حقائق الكون على جناحين من هذا الحس نفسه . فالفنان الحق لا يمكنه أن ينتظر حتى يقول له المعلم إنه ثبتت لديه حقيقة من الحقائق على وجه من الوجوه ، وإنه يأذن له على أساس هذا الثبوت أن يتخذ من هذه الحقيقة مادة لفنه . هو لا يمكنه أن ينتظر حتى يحدث هذا وإنما هو يصل من تلقاء نفسه إلى هذه الحقائق فيعلمها والعلم لا يزال يحبو فى الطريق إليها متثاقلاً متلكئاً ؛ وقد يصيب الفنان هذه الحقائق ، وقد يخطئها ، ولكنه على أى حال يصل إلى شىء ما ، — بعيد عنها أو قريب منها — على أنه هو نفسه لا يعنيه من هذا كله إلا أن ينطلق ، وأن ينطلق فقط .

ومع هذا الحس ، ومع هذا السبق به ، فإنه لا بد للفنان أن يدفعه إلى إنتاجه الفنى دافع نفسانى من العواطف التى ينفثها فى فنه

رضى أو سخطاً أو غير ذلك ، وإلا كان الفن بارداً برودة الموت ، لأنه خلا من العاطفة وهى روحه وباعثة الحياة فيه .

ومع هذا وذاك فلا بد أن يكون الفن حراً لا يرضى لنفسه أن خضع فى الأغلال والقيود ، ولا يقبل أن يتحكم فيه شيء ، وإن رضخ له كل ما ينتجه العقل البشرى من علم وصناعة .

هذه « أوليات » لا يمكن أن يكون الفن فناً بدونها . فهل تتوفر هذه « الأوليات » فى هذا النوع الثالث من الفن الرمزى الذى يطالعنا به هذا العصر الحديث ؟

أما الحس الصادق فهارب من أهل هذا الفن ، وليس هو وحده الذى هرب منهم وفر ، وإنما تسلل من نفوسهم معه كل حس فلم يعودوا يحسون إحساساً صادقاً ولا إحساساً كاذباً . وليس هذا لأن الله خلقهم هكذا « مبرشين » بل لأنهم هم أنفسهم أرادوا أن يكونوا هكذا . فلم يقبلوا أن يكون فى الناس من يزيد عليهم علماً ، ولا من يزيد عليهم اطلاعاً ، ولا من يزيد عليهم إلماما بما يكتب وبما فى الكتب ، ولا من يزيد عليهم إحاطة بما يحدث فى هذه الدنيا من اختراعات واكتشافات ونظريات ومعلومات ، فأدمنوا القراءة ، وأدمنوا التعلم ، وأدمنوا الاطلاع ، وهذا كله يشغل العقل ويجهده ، ويأخذه بالمران على سلوك نهج الناس فى التفكير . والذى لا شك فيه هو أن هذا العصر الحديث قد اختط لنفسه نهجاً خاصاً فى التفكير ربما تكون الإنسانية قد اصطنعته فى يوم ما ، ولكنها على أى حال لم تقطع فيه شوطاً بعيداً كهذا الذى قطعته فيه هذه الأيام ، ذلك هو طريق المادة ، فالإنسانية اليوم تحشد مواكبها جميعاً فى هذه الطريق ، والقوى القادر هو من تقدم إلى الطليعة يتلقط الثمر الذى يعثره الشيطان أمام هذا القطيع البشرى ، والضعيف المزيل هو من تأخر إلى آخر الموكب يتلقط القشور والنوى

والفنان الذى يصطنع هذا اللون من التفكير يقوى واحدة من ناحيتيه الإنسانيتين على حساب الأخرى إذ ينصر عقله على إحساسه ، وهو لا يقوى هذه الناحية فى طريقها الفطرى الذى ترضاه الطبيعة والذى تطالب به برهاناً على جدارة الإنسانية بنعمة العقل الذى لا يؤذى النفس ولا يؤذى الغير ، ولكنه يقويها وهى جانحة فى طريق خاطئ كله رذيلة وكله شر . ومهما ادعى الفنان المشغوف بالعلم اللاهث من الجرى وراءه أن فى استطاعته الاعتصام بنفسه عن نزوات العقل والعلم والحضارة الحديثة ، فإنه إما مخادع فى هذه الدعوى وإما مخدوع ، لأن طابع العقل والعلم والحضارة فى هذا العصر هو طابع المادة ، فالعقل لا يقر من الحقائق إلا ما ثبت ثبوتاً ماديًّا ، وأول ما ينكره إذن هو الحس والروح . والعلم لم يعد الناس يطلبونه ليجدوا فيه المتعة الروحية أو ليصلوا عن سبيله إلى ما هو أكبر وأغنى وأنفس من هذه الحياة ... وأما الحضارة فما هى ذى : عمارات ، وطيارات ، وبوارج ، وغازات سامة ! وكفى هذا القرن العشرين سبة أنه عند ما قال له فرويد : « إن الإنسانية تحركها فى حياتها قوة الغريزة الجنسية » اطمأن إلى هذا اطمئناناً ثبت فى النفوس وتأصل وتفرع وتسلقت منه أغصان سامة هاصرة التفت حول كل شيء حتى أعناق الفنون تريد أن تدقها لتتفرد البهيمية فى نفوس الناس على أساس من العلم وليجيء يوم تنضم فيه مستشفيات المجاذيب وحدها على الذين يؤمنون بالحس والروح ، وليجيء بعده يوم تبرأ فيه الإنسانية من الحس والروح ويكون أمرها إلى الغريزة الجنسية أولاً وأخيراً

ويا له من يوم ... ! يوم يقول فيه الناس : عاش على هذه الأرض فيما سبق مجنون كان يدعى غاندى وقد كان تلميذاً لمجانين من أساتذته السابقين !

فهل يرضى الفن عن هذا وهو المسكة من روح الله فى نفوس الفنانين ... ؟

لا ! إنهم سيثورون على هذا العقل وعلى هذا العلم وعلى هذه الحضارة ، وسترى الإنسانية عن قريب يوماً يكون الهداة فيه كتاباً ورساميين ، وموسيقيين ، وممثلين ، وشعراء ، ومغنين وسيصرخ هؤلاء فى وجوه الذين يدحرجون الإنسانية إلى الهاوية ليبيعوا لها الحديد والنار للقتال ، وليبيعوا لها الخبز والماء لإمساك الرمق من أجل القتال وحده . وستكون أهون صرخاتهم كتلك التى صاح بها شارلى شابلن فى وجه « العصر الحديث » بقصته الأخيرة ...

ولعل العالم لما ينس قصة « كل شيء هادئ فى الميدان الغربى »

وغيرها من قصص السينما والمطبعة التي كشفت الستر عن مآسي الحرب وما بعثها من جنون العقل ، وما ألهبها من هوس العلم ، وما غذاها من اختبال الحضارة وجشع المادة . كانت هذه القصة كما كانت غيرها من القصص الداعية إلى الروح والسلام فناً ، وكانت حية ، وكانت حارة . وقد خلقتها جميعاً في نفس منشئتها عاطفة واحدة هي الاشمئزاز من العقل والعلم والحضارة الحديثة ، لأن الفنان الحق لا يملك أن يقف من العقل والعلم والحضارة الحديثة إلا موقف المشمئز الكاره لا موقف المحب التابع ، أو العبد الخاضع ، ما دام يرى هذا اللون الأحمر الذي تصطبغ به الحضارة القائمة على أساسين من العقل والعلم والخالية من الحس والروح

أما القول بأن علم النفس لا يدعو إلى الحرب فلا تصح كراهيته، وإنه من الجائر للفنان أن يتابعه وأن يجني الحق من فضله فهو قول يلجأ إليه المكتوف المعصوب العينين ، ولا يقبل أن يقول به فنان منطلق لا يشعر بحاجته إلى العلم كي يرى ويسمع لأنه بعينيه يرى وبأذنه يسمع ... وإلا فعليه أن يطمس عينيه ، وأن يسد أذنيه وأن يقنع بقراءة الكتب التي تؤله الغريزة الجنسية ، وأن يجري وراءها .

سيقولون إن أسمى الفنانين هو الذي ينتج فناً إنسانياً عاماً تتذوقه النفوس جميعاً .. وسيقولون إن القواعد التي يقررها علم النفس قواعد عامة تنطبق على النفوس جميعاً انطباقاً تاماً سليما ، وهذا وحده يكفي — عندهم — أن يغري الفنانين بالإقبال عليها والتعلق بها . وردنا على هذا أن هذه الطريقة التي يصطنعونها طريقة عقلية تجارية ليس فيها من خير إلا أنها مريحة جداً للفنان الذي يسلكها إذ يستغني فيها بكتاب يشتريه بدراهم معدودة فيقرأه فيتخذ منه مادة الفن ... عن سنوات أو أشهر أو أيام ينفقها من عمره في هذه الحياة تأكل من أعصابه وتشرب من دمه لتجود عليه بعد ذلك بمثل ما جادت به على من أخرجوا البؤساء، وآلام فرتر ، ومتروبوليس ، وفاوست ، وسائر هذه الجمرات الخالدة التي التهبت جمجمات في نفوس أصحابها لا كتلاً من الثلج المصنوع من الماء والأحماض والأملاح

لم يكن العلم يوماً من الأيام هادياً للفن ، وإنما استطاع في كثير من الأحوال أن يهدي الصناعة والتجارة

فإذا كان أتباع العلم هؤلاء فنانين حقاً فلماذا لا ينشرون إحساسهم على العالم فيحيطون به ثم يطالعوننا بما يتطبع في حسهم وهم يرون العالم على ما هو عليه ، وهم يعرفون ما هو عليه ؟

لم يكن العلم يوماً من الأيام هادياً للفن ، وإنما كان الفن على مر الزمان سباقاً

وإني أريد الآن أن أتصور واحداً من هؤلاء الذين يتبعون العلم في فنهم وهو يريد أن يضع قصة مثلاً ، كيف يضعها ؟ إنه يقرأ في كتاب من كتب علم النفس أن الذاكرة تغيب عن الإنسان أحياناً فيبتلعها العقل الباطن ، ويعيش الإنسان مدة طويلة أو قصيرة وهو بغير ذاكرة فتصدر منه أقوال وأفعال لا تستقيم مع حياته الظاهرة . وقد يحدث بعد ذلك حادث يعيده إلى ذاكرته أو يعيد إليه ذاكرته ، أو قد لا يحدث له هذا الحادث عفواً ، فهو إذن محتاج إلى التنويم المغناطيسي يرد إليه ذاكرته

يقرأ الكاتب المثقف هذا فيقول في نفسه : والله إن هذا الموضوع يصلح قصة ؛ فلأركبها إذن من رجل وزوجته فتغيب عنه ذاكرته فتشقى هي لهذا ، وأخيراً يسعدان بشفائه ، ثم يعود فيقول لنفسه : وما هي الحوادث التي سأوقع بهذا الرجل فيها ، على أن تكون حوادث مسلية لذيذة ، وعلى أن تكون في الوقت نفسه غامضة حتى يثبت للقراء أنني من أدباء الرمز الذين يستغلق فهمهم على عامة الناس . . . آه . . . فلتكن هذه الحوادث كيت وكيت وكيت ... وعلى هذا النمط الكيميائي الصناعي يسير صاحب الفن العلمي في فنه فيؤلف قصته أو يركبها فيقرأها القارئ وينفق فيها وقته وهو لا يشعر مطلقاً بأن الفنان الذي «عمل» هذه القصة يختلف في كثير أو قليل عن العالم الذي كتب التقرير العلمي صاحب الفضل الأول في تأليفها .

فهل من طبع الفن أن يشبه طبع العلم ؟ لا ... ليس الفن هكذا ولا إنشاء القصة هكذا ...

هوجو ابتأس فأخرج البؤساء . هوجو شقي فخلد الشقاء ،

وعرض منه صوراً لا يقول أحد إنه رآها جميعاً ، أو أن كتاباً دله إليها ، ولكنه هو أحسها لأن روحه طافت بها . روحه كانت تغادره وتحل فى البؤساء على اختلاف ألوان بؤسهم فتتذوق للبؤس طعوماً مختلفة ليس أقساها بؤس « جان فلجان » اللص الذى سرق رغيف الخبز ، وإنما قد يكون أقساها بؤس « جافير » رجل البوليس الذى كان يتنطع فى مخاصمة « جان فلجان » وتتبعه وإحراجه لا لأنه يمقته ولكن لأنه كان يخشى أن يقصر فى واجبه ، فيكون فى نظر القانون مجرماً وهو ما لم يكن يحب أن يتردى إليه بعد أن أحسن المجتمع تنشئته وقد كان لقيطاً رباه المجتمع ليكون حامياً من حماته

ما أعجب هذه النفس التى عرضها هوجو فى بؤسائه . نفس أصابتها العقد — على حد تعبير العلماء — فأصبحت تتحجر دون الرحمة لأنها كانت تخشى ألا يرحمها أحد ، كما لم يرحمها أب ولا أم. وهذه نفس قد يحللها فرويد ، وقد يحللها سبيرمان أو غيرهما من علماء النفس ولكن تحليلهما وتحليل غيرهما ليسجد أمام هذا الجلال الذى أسبله عليها هوجو الفنان الذى لم يقرأ علم النفس ولا نظريات علم النفس ، والذى كان يعيش بروحه فيحس ويشعر ، والذى لو لم يكن أديباً بطبعه لما أنشأها هذا الإنشاء الرائع ، والذى لو كان موسيقياً لأرسلها لحناً باكياً

الفنون يا أصحاب الفنون يمكن أن يترجم بعضها إلى بعض ، لأنها لا تكون فنوناً إلا إذا كانت من وحى العواطف ، والعواطف لا تستعصى على أى فن. فما هى العواطف التى تتحرك فى نفوس الذين يجرون وراء العلم العاقل والتى تصلح للترجمة إلى بقية الفنون؟ لا شىء إلا عواطف مصنوعة مركبة . أما العاطفة الصادقة فى نفوسهم فهى لا تتحرك إلا نحو غرض من أغراض الطبع والنشر والإذاعة

لا . ليس هذا فنّا

وأخيراً . ما الذى يقبل من الفنان أن يكون عليه ؟ ...

لا شىء أكثر من أن يعيش وهو لا يدبر فى نفسه أنه سيخرج فنّا ... فليترك نفسه للحياة ، وليسع إلى الصدق ما أمكنه السعى . وليبحث عن الجمال ما أمكنه البحث . ليقرأ ، ولكن عليه أن يقرأ فى صفحات الوجوه قبل أن يقرأ فى صفحات الكتب . عليه أن يلتفت إلى الناس وإلى الحيوان وإلى النبات وإلى الجماد . فليعط كل نفسه لكل ما يحيط به من مظاهر الوجود ... فليباشر هذه الحياة ، وليبادلها الحس ، وليغتبط بكل ما تؤاتيه به من سعادة أو محنة ، وبكل ما يراه فى الناس من خير أو شر ، وبكل ما يطالعه فى الطبيعة من أحسن الصور وأقبحها فهذا وحده هو سبيل الفن ، وليس من الضرورى بعد ذلك أن يكون الفن كتابة أو ألحاناً أو صوراً ... وإنما الفن هو حياة الهدى ... وكم فى جماهير الناس من نقاة فنانين ، وكم فى الفنانين من مرتزقة أو — على الأقل — حائدين !

عزيز أحمد فهمى